الفيروزبادي

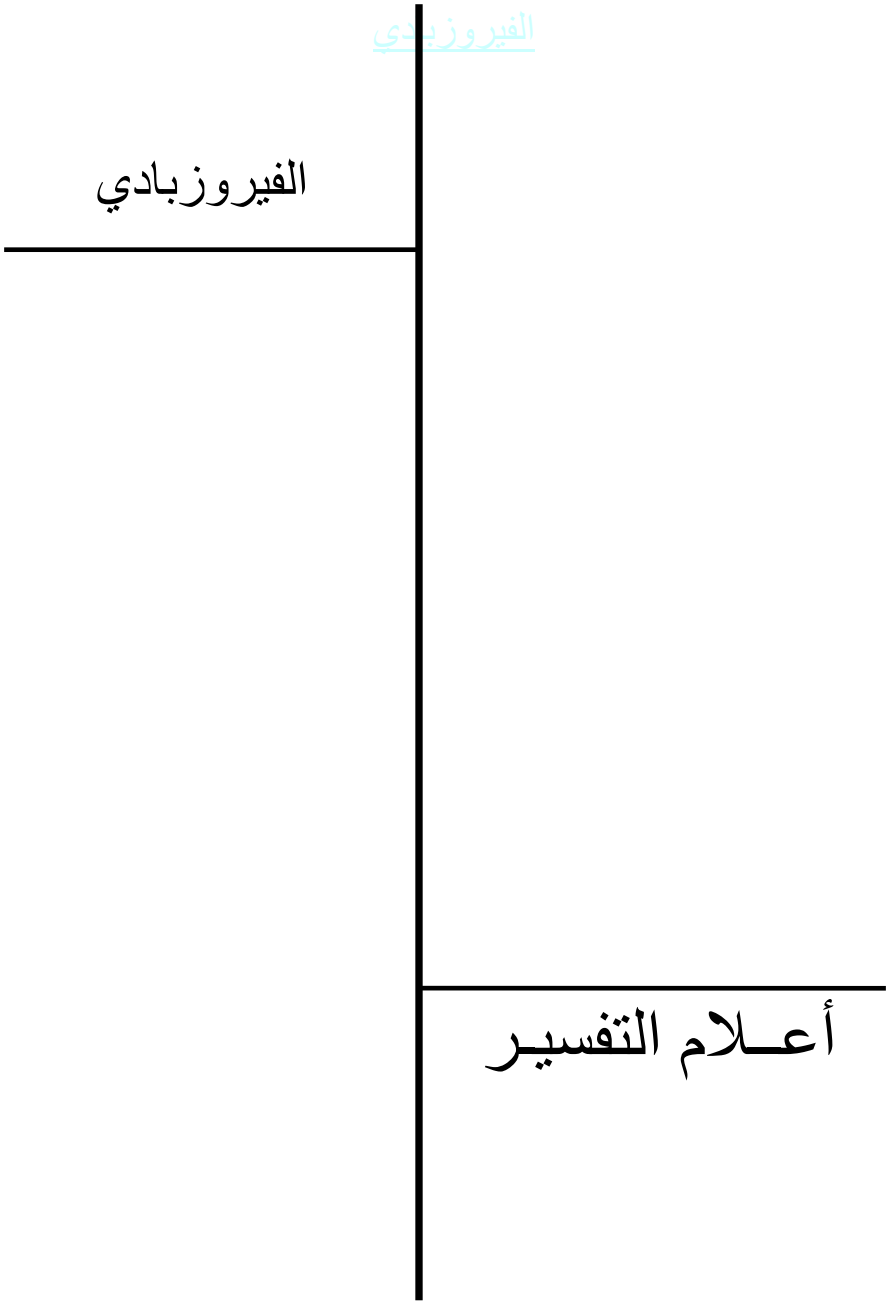

الفيروزبادي
بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز

في مدينة (كارِزين) إحدي مدن إقليم فارس من أَقاليم إيران وُلد مجد الدين الفيروز آبادى محمد بن يعقوب.

وكانت ولادة المجد في ربيع الآخر - وقيل: في جمادى الآخرة - سنة 729هـ (سنة 1329م). ولا يعرف من أَخبار أُسرته إلا أَن أباه كان من علماء اللغة والأَدب في شيراز. وقد توجّه إلى حفظ القرآن فحفظه وهو ابن سبع سنين. وكان سريع الحفظ، واستمرَّ له ذلك في حياته. وكان يقول: لا أَنام حتى أَحفظ مائتى سطر.

وقد بدا ميله إلى اللغة في زمن مبكِّر. فيذكر السخاويُّ أَنه نقل إذ ذاك كتابين من كتب اللغة، والظاهر أَن هذا بتوجيه أَبيه.

وقد انتقل في السنة الثامنة من حياته إلى شيراز في طلب العلم. فأَخذ عن أَبيه اللغة والأَدب. ويدخل في ذلك النحو والصرف وعلوم البلاغة، وأَخذ عن القوام عبد الله بن محمود بن النجم. وتلقَّى الحديث عن محمد بن يوسف الزَّرَنْدىّ الحنفىّ المدنىّ وكانت وفاته سنة بضع وخمسين وسبعمائة.

ونجد أَن اتجاهه لعلوم المنقول، ولا نراه يتَّجه لعلوم المعقول كالمنطق والكلام، كما نرى ذلك في علاَّمتى المعقول في عصره وبيئته: سعد الدين التفتازانى المتوفى سنة 792هـ، والسيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة 816هـ.

ويفارق شيراز في سنة 745هـ إلى العراق، فيدخل واسطا، ويقرأُ بها القراءات العشر على الشهاب أَحمد بن علىّ الديوانىّ. ويدخل

بغداد فيأْخذ عن التاج محمد بن السبّاك، والسراج عمر بن علىّ القزوينىّ، وعليه سمع الصحيح (الظاهر أَنه صحيح البخارى) ومشارق الأَنوار للصاغانىّ في الحديث، ويذكر ابن حجر في الدرر الكامنة هذا الرجل، فيصفه بأَنه محدّث العراق، ويقول: " ومات سنة 750هـ. ورى عنه جماعة من آخرهم شيخنا مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى صاحب القاموس " ويختصّ فيها بقاضى بغداد الشرف عبد الله بن بكتاش. وكان مدرّس النظاميّة، فيعمل مُعيدا عنده. ويمكثُ هكذا في بغداد سنين.

وبعد هذا يدخل دمشق سنة 755هـ، فيأخذ عن علمائها ومحدِّثيها، كقاضى القضاة التقىّ السبكِّى المتوفى سنة 756هـ ، وابنه التاج عبد الوهاب المتوفى سنة 771هـ، ومحمد بن إسماعيل المعروف بابن الخبَّاز مسِند دمشق المتوفى سنة 756هـ، وابن قيِّم الضيائيَّة عبد الله بن محمد ابن إبراهيم المتوفى سنة 761هـ.

وطاف في بلاد الشام يأخذ عن علمائها. واستقرَّ به المقام حينا من الدهر في بيت المقدس. فأَخذ عن صلاح الدين خليل بن كَيْكَلدِى العلائى، وكان مدرس المدرسة الصلاحية بالقدس من سنة 731هـ، وكانت وفاته سنة 761هـ بالقدس.

نسب المجد ولقبه، وما اشتهر به :

أملى المجد نسبه، ورفعه إلى أَبى إسحاق الشيرازى إبراهيم بن علىّ الذي كان علما في فقه الشافعية، وهو صاحب التنبيه والمهذَّب. وكانت وفاته سنة 476هـ.

وسياقه نسبه - كما في الضوءِ اللامع : محمد بن يعقوب بن إبراهيم ابن عُمَر بن أَبى بكر بن أَحمد بن محمود بن إدريس بن فضل الله ابن الشيخ أَبى إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف بن عبد الله.

ويذكر ابن حَجَر في إنباءِ الغُمر أَن شيوخه كانوا يطعنون في رفع

نسبه إلى أَبى إسحاق مستندين إلى أَن أَبا إسحاق لم يُعقب. وفي الضوءِ أَن هذا القول مرجعه إلى الظن لا إلى اليقين.

ويذكر ابن حَجَر أَيضاً أَن المجد بعد أَن ولى القضاءَ باليمن ارتقى درجة فصار يدّعى انتسابه إلى أَبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه، ويقول:

" وزاد إلى أَن قرأْت بخطِّه لبعض نوّابه في بعض كتبه: كتبه محمد الصدِّيقى. ولم يكن مدفوعاً عن معرفة، إلاَّ أَن النفس تأْبى قبول ذلك " وقد حاولت أن أَقف على تمام نَسب أَبى إسحاق، وأَن أَتعرَّف حال نسبته إلى أَبى بكر رضى الله عنه، فلم أَهتد إلى مرجع في ذلك.

واشتهرت نسبته " الفيروز آبادى " وهى نسبه إلى فيروز آباد - بفتح الفاءِ وكسرها - وهى مدينة (جُور) في جنوبيّ شيروز، وفي شماليّ كارِزين. وفي خاتمة تاج العروس أ ظن فيروز آباد كان منها أَبوه وجَدّه. وهذا القول في النفس منه شىء. فقد كان مولد المجد في كارزين، وبقى فيها سنيه السبع الأُولى ثم ينتقل إلى شيراز، ولا نرى له علاقة بفيروز آباد، وكذلك نرى أَباه من علماءِ شيراز، ولا نرى له ذكراً في فيروز آباد. وقد يقال: إن كارزين بلدة أُمّه، وإن أَخبار أَبيه لم يبلغنا منها إلا النزر اليسير. وفي ظنِّى أَن هذه النسبة أَتته من قبل انتسابه إلى أَبى إسحاق، فقد كان من فيروز آباد، وطلب العلم في شيراز، واستقرّ به المقام في بغداد.

ويقال في نسبه أَيضاً: الشيرازىّ، إذ تلقى العلم في مبدإِ أَمره في شيراز. ونراه ينسب إلى كارزين.

ومما يدخل في هذا الفصل أَنه كان يحبُّ الانتساب إلى الحرم المكَّىّ: لإقامته فيه مراراً، كما سبق. فكان يكتب: " الملتجئ إلى حرم الله تعالى ". وفي تاج العروس في آخره أَنه وجد في بعض النسخ: " قال مؤلفه الملتجئ إلى حَرَم الله محمد بن يعقوب الفيروز آبادى... "

ويقول السخاوى وغيره: إنه كان يقتدى في هذا بالصاغانى الحسن بن محمد المتوفى في بغداد سنة 650هـ، أَى قبل سقوط بغداد واستيلاءِ التتار عليها بست سنوات. وقد كان المجد يقتدى بالصاغانى، ويعتمد عليه في اللغة وغيرها. ونرى أَن الصاغانىّ الذي قدِّرت وفاته في بغداد كان أَوصى أَن يدفن في مكة، فنقل إِليها تنفيذاً لوَصِيَّته.

أستاذية المجد :

ولى المجد في بيت المقدس عدّة تداريس. ومعنى ذلك أَنه كان مدرّسا في عدّة مدارس، يتقاضى من كل مدرسة نصيبه المخصَّص لدرسه في الوقف. وهنا تبدأُ أُستاذيَّته، فيأْخذ عنه الناس، وممن أَخذ عنه الصلاح الصفَدى المتوفى بدمشق سنة 764هـ، وأَخذ هو أَيضاً عن الصلاح. وفي الضوءِ اللامع أظنه بقى في القُدس عشر سنوات أَى إِلى سنة
765هـ. ولكنَّا نراه في خلال هذه المدّة مرَّة في القاهرة، كما يأْتى، فلا بدَّ أَنه في أَثناءِ هذه المدّة كان يرحل إِلى جهات أَخرى، ويعود إِلى القدس.

ولا يقنع المجد بمكانه في القدس وتداريسه، فيرحل إِلى القاهرة، ويلقى علماءَها، كبهاءِ الدين عبد الله بن عبد الرحمن المشهور بابن عقيل شارح الأَلفيَّة المتوفى سنة 769هـ، وجمال الدين عبد الرحيم الإِسنوىّ المتوفَّى سنة 772هـ، وابن هشام عبد الله بن يوسف النحوىّ المشهور، المتوفَّى سنة 761، ونرى من هذا أَنه جاءَ مصر قبل سنة 765هـ، فإِذا صحّ أَنه استقرّ في القدس عشر سنوات منذ سنة 755 هـ فإِنه كان يحضر مصر في رحلات ثم يعود إِلى القدس [1].

ونرى في العقد الثمين أَنه قدم مكَّة قبل سنة 760هـ. وعلى حسب كلام السخاوىّ يكون قدومه إِلى مكة من بيت المقدس. ثم يقول: إِنه قدمها بعد ذلك سنة 770هـ، وإِنه في هذه المرة أَقام بها خمس سنين

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 4.

متوالية، أَو ست سنين - يشكُّ الفاسيُّ صاحب الكتاب - ثم رحل عنها أَى في سنة 775 هـ، أَو سنة 776 هـ، ولا يذكر الفاسيُّ إلى أَين رحل. ثم يذكر أَنه عاد إلى مكة غير مرَّة بعد التسعين، وكان بها مجاوراً سنة 792 هـ، ومجاورة الحرم أَن يظل في مكة بعد الحجّ، ولا يعود إلى بلده مع العائدين. ولا أَدرى لمَ لمْ يجعله مجاورا في السنين الخمس المتوالية أَو السنين الست التي أَقامها بمكة. وقد رحل في هذه المرة من مكة إلى الطائف، واشترى فيها بستاناً كان لجدِّ الفاسيّ من جهة أُمِّه. ولا بدّ أَنه في مكة كان يدرّس في مدارس، ويتقاضى منها مرتبات يعيش بها. وقد أَخذ عنه الفاسيّ، ويلقبه بشيخنا.

رحلات المجد ووفادته على الملوك :

تبيَّن القارئُ مما سبق كثرةُ رحلاته في طلب العلم. وقد كان أَيضاً كثير الوفادة على الملوك والأُمراءِ لعهده. ويُذكر أَنه كان له حُظوة عندهم، فلم يدخل بلدا إلا وأَكرمه متوليها.

فنراه اتصل بالأَشرف سلطان مصر. والظاهر أَنه الأَشرف شعبان ابن حسين من ملوك المماليك الترك، وقد ولى ملك مصر سنة 764 هـ، وقتل سنة 778 هـ وقد أَجازه الأَشرف ووصله، وفي النجوم الزاهرة: " كانت أيام الملك الأَشرف شعبان المذكور بَهجة، وأَحوال الناس في أَيامه هادئة مطمئنَّة، والخيرات كثيرات... ومَشَى سوق أَرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفنّ، ونفقت في أَيامه البضائع الكاسدة من الفنون والمُلَح، وقصدته أَربابها من الأَقطار، وهو لا يكلّ من الإحسان إليهم في شىء يريده، وشئ لا يريده، حتى كلَّمه بعض خواصّه، فقال - رحمه الله - : أَفعلُ هذا لئلا تموت الفنون في دولتى وأَيَّامى ".

وفي سنة 792 هـ كان المجد بمكة، فاستدعاه ملك بغداد أَحمد بن

أُويس إليها بكتاب " كتبه إليه، وفيه ثناء عظيم عليه، من جملته:

القائل القولَ لو فاه الزمان به :: كانت لياليه أَياما بلا ظُلَم
والفاعل الفعلَةَ الغرَّاء لو مُزِجت :: بالنار لم يك ما بالنار من حُمَم

وفيه بعد ذكر هديَّة من مستدعيه:

ولو نطيق لَنهدى الفرقدين لكم :: والشمسَ والبدر والعيّوق والفلكا

وصدور هذا من سلطان لعالم منقبة كبيرة له، وقد ذهب إلى بغداد مع الركب العراقيّ بعد الحجّ، ونال برَّه وخيره.

وقد رحل إلى الهند، ووصل إلى دِهْلى. وف ي العقد الثمين أَن دخوله لليمن من بلاد الهند، وقد دخل اليمن سنة 796 هـ، فيكون رحلته إلى الهند، متَّصلة بهذا التاريخ، وكان هذا في عهد السلطان اسكندر شاه الأَول الذي ولى السلطان في سنة 795 هـ، فإن كان في الهند قبل هذا التاريخ فإنه يكون اتصل أَيضاً بالسلطان محمد شاه سلف هذا السلطان، وهما من بنى تغلق شاه.

وذهب إلى بلاد الروم (الأَناضول) ولقى فيها حُظوة عند السلطان بايزيد بن مراد الذي ولى السلطنة سنة 791 هـ؛ ومات سنة 804 هـ، وكانت حاضرة ملكة بُرُسَّا، إذ لم تكن القسطنطينيَّة قد فتحت بعد.

ووفد على تيمور لنك في شيراز. ووصله تيمور بنحو مائة أَلف درهم. وقد تغلَّب تيمور على فارس والعراق وممكلة التتار، وقصد الشام وغلب عليها حيناً. وكان ظالماً غشوماً. ومع هذا كان يقرِّب العلماءَ والأَشراف وينزلهم منازلهم. وكان يجمع العلماء في مجلسه ويأمرهم بالمناظرة ويسأَلهم ويعنِّتهم بالمسائل. وكانت وفاته سنة

807 هـ.

ووفد على شاه شجاع بن محمد بن مظفَّر اليزدى صاحب عراق العجم الذي يعرف بالجبال. وفي الدرر الكامنة في ترجمته: " وقد اشتغل بالعلم واشتهر بحسن الفهم ومحبَّة العلماءِ. وكان ينظم الشعر ويحبُّ الأُدباءَ، ويجيز على المدائح، وقُصد من البلاد. ويقال: إنه كان يقرئ الكشاف وكتب منه نسخة بخطِّه الفائق، ورأَيت خطه وهو في غاية الجودة... وله أَشعار كثيرة بالفارسية " وكانت وفاته سنة 787 هـ. وفي الضوءِ أَن وفادته كانت على شاه منصور بن شاه شجاع هذا. وشاه منصور ليس ابن شاه شجاع بل هو ابن أَخيه، كما يتبين من معجم الأَنساب والأُسرات الحاكمة ص 379 هـ، فالرواية الأُولى أَثبت وهى رواية ابن حجر العسقلانى [1].

مكانة المجد العلمية والثقافية :

كان المجد واسع المعرفة، كثير الاستحضار للمستحسَن من الشعر والْحكايات، وقد أَعانه على ذلك قوَّة حفظه، وكان ذلك من أَسباب سعادته عند الملوك والأُمراءِ. وكان يحسن اللسان الفارسىّ إذ نشأَ في بلاد فارس، وكان ينظم الشعر في هذا اللسان، كما كان ينظم الشعر العربىّ. ومن شعره الذي مال فيه إلى التجنيس قوله:

أَحبتنا الأَماجد إن رحلتم : ولم ترعَوا لنا عهدا وإلاَّ
نودِّعْكم ونودعْكم قلوباً :: لعلَّ الله يجمعنا، وإلاَّ

فقوله: " إلا " في آخر البيت الأَول يريد به الحرمة والذِّمام، وقوله:

" إلاَّ " في آخر البيت الثاني مركَّبة من إن الشرطية ولا النافية، وفعل الشرط محذوف، أَى: وإلا ترحلوا تمتعنا ببقائكم. ويحتمل أَن يكون المراد: وإلاَّ يجمعنا الله أَضرّ بنا الوجدُ، أَو نحو ذلك. ويقول الفاسىُّ

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 6.

في العقد الثمين: " وسمعت من ينتقد عليه قوله في آخر البيت الثاني: (وإلا) بما حاصله: أَنه لم يتقدَّم له ما يوطِّئ له وأَن مثل هذا لا يحسن إلا مع تقديم توطئة للمقصود ".

وقد ساعده على سعة ثقافته كثرة كتبه " حتى نقل الجمال الخيَّاط أَنه سمع الناصر أَحمد بن إ سرماعيل يقول: إنه سمعه يقول: اشتريت بخمسين أَلف مثقال ذهباً كتباً. وكان لا يسافر إلاَّ وصحبته منها عدَّة أَحمال، ويخرج أَكثرها في كل منزلة فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل ". ويذكِّرنا هذا بالصاحب إسماعيل بن عبَّاد، فقد ذكر عنه أَنه كان يحتاج في نقل كتبه إلى أَربعمائة جمل. على أَنه قد يمدّ يده إلى كتبه فيبيع منها، فقد ذكروا عنه أَنه كان مسرِفاً، وكان مع كثرة ثروته يمحقها بالإسراف.

وقد علمت مما مرَّ بك ميل المجد إلى علوم الرواية، وتَطوافه في البلاد للأَخذ عن علمائها، فكانت له مشيخة كثيرة، وقد كتب جمال الدين محمد بن موسى المراكشى المكىُّ كتابا ذكر فيه مشيخته، على عادة العلماءِ في ذلك العهد.

وقد قام برواية الحديث ونشره حين استوسق أَمره. وقد علمت عنايته باللغة منذ نعومة أَظفاره، وظل يجدُّ فيها، حتى كانت له اليد الطولى في مباحثتها. ويدلُّ ثبت كتبه الذي سيمر بك على تضلعه في كل ما يتَّصل بالرواية.

وكان على سعة معارفه تعوزه الدقَّة في بعض تآليفه. فقد أَخذ عليه التقى الفاسىّ في العقد الثمين أَنه أَلَّف كتابا في فضل الحَجُون - وهو جبل بأَعلى مكَّة فيه مقبرة - فذكر من دُفن فيه من الصحابة. ويقول الفاسى: " ولم أَر في تراجمهم في كتب الصحابة التصريح بأنهم دُفنوا جميعا بالحجون، بل ولا أَن كلهم مات بمكَّة. فإن كان اعتمد في دفنهم أَجمع بالحجون على من قال: إنهم نزلوا بمكَّة فلا

يلزم من نزولهم بها أَن يكون جميعهم دُفن بالحجون، فإن الناس كانوا يدفنون بمقبرة المهاجرين، بأَسفل مكة، وبالمقبرة العليا بأَعلاها، وربما دفنوا في دورهم".

ومن ذلك أَنه كان يتساهل في رواية الأَحاديث الضعيفة والموضوعة، على علمه بوضعها وضعفها. وقد أَلَّف هو مجموعا في الأَحاديث الضعيفة. وتراه في كتاب البصائر يذكر في فضائل السور حديث أُبَيّ بن كعب الطويل، فيذكر في كل سورة ما يخصّها من هذا الحديث، وهو حديث موضوع تحاشاه المفسّرون إلا الزمخشرى والبيضاوى فقد يأْتيان ببعضه، وأُخذ عليهما هذا. وكذلك حديث على المتناول لكل سورة، وفيه: يا على إذا قرأْت سورة كذا كان لك كذا، فهو يوردُه مع التنبيه عليه في بعض الأَحيان بأَنه واهٍ أَو ساقط. والمتحرِّى للدقة ينأَى عن هذا السبيل، وقد شدَّد العلماء في رواية الموضوعات ووجوب تجنُّبها.

ومن هذا أَنه جمع ما يروى في التفسير عن ابن عباس، واعتمد على رواية محمد بن مروان عن الكلبى عن أَبى صالح عن ابن عباس. ويقول السيوطى في الإتقان في النوع الثمانين الذي عقده لطبقات المفسرين، إن أَوْهى الطرق عن ابن عباس طريق الكلبى عن أَبى صالح عنه، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مَرْوان السُدِّى الصغير فهى سِلسلة الكذب.

وقد عابه النقَّاد بإيمانه برَتن الهندىّ. وهو رجل ظهر بعد الستمائة من الهجرة، أَو ادَّعى ظهوره، وادَّعى صحبته للرسول عليه الصلاة والسلام، بل زعم أَنه أَسنّ منه، وروى عنه أَحاديث وأَحوالا. وقد ردّ هذه الدعوى الجهابذة. ويذكر الذهبىّ أَن هذه فرية مختلقة، وأَنه لا وجود له. ولكن المجد يصدّق بوجوده وصحبته وبقائه هذه المدة الطويلة، وينكر على الذهبىّ إنكاره له. ويقول ابن حجر في الإصابة:

" ولمّا اجتمعت بشيخنا مجد الدين الشيرازىّ شيخ اللغة بزَبيد في اليمن - وهو إذ ذاك قاضى القضاة ببلاد اليمن - رأَيته ينكر على الذهبىّ إنكار وجود رَتَن. وذكر لى أَنه دخل ضَيْعته لمَّا دخل بلاد الهند، ووجد فيها من لا يُحصى كثرة ينقلون عن آبائهم وأَسلافهم قِصَّة رَتَن ويثبتون وجوده ".

على أَنه في الرواية البَحْت ة كان عَلَما مشهودا له. ويقول الخزرجىّ فيه حين كان يلقى دَرس البخارىّ في زبيد: " وكان من الحفَّاظ المشهورين، والعلماء المذكورين. وهو أَحقّ الناس بقول أَبى الطيِّب المتنبى حيث يقول:

اَدِيب رسَتّ للعمل في اَرض :: جِبالٌ جبالُ الاَرض في جنبها صدره : قَفُّ

وأَعود إلى الحديث عن تبريزه في اللغة. فيذكر صاحب الشقائق النعمانيّة أَن المجد آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفنّ فاق فيه أَقرانه على رأْس القرن الثامن الهجرى. وهم سوى الفيرو ز آبادى:

1 - الشيخ سراج الدين البُلقينى، في الفقه على مذهب الشافعى. وهو عمر بن رسلان مجتهد عصره. له تصنيف في الفقه والحديث والتفسير، منها حواشى الروضة، وشرح البخارىّ، وشرح الترمذى. وولى تدريس التفسير بالجامع الطولونى. وكانت وفاته سنة 805هـ.

2 - والشيخ زَين الدين العراقىّ في الحديث. وهو عبد الرحيم بن الحسين، حافظ العصر، وله الأَلفيَّة في مصطلح الحديث وشرحها، وتخريج أَحاديث الإحياء، وغيرها. مات سنة 806 هـ.

3 - والشيخ سراد الدين بن الملقّن في كثرة التصانيف في فنّ الفقه والحديث. وهو عمر بن علىّ. اشتغل بالتصنيف وهو شابّ، حتى كان أَكثر أَهل العصر تصنيفا. ومن تصانيفه شرح البخارىّ، وشرح

العمدة، وشرحان على المنهاج في الفقه، وشرح الحاوى، وشرح التنبيه، وشرح منهاج البيضاوىّ في الأُصول، والأَشباه والنظائر. وكانت وفاته سنة 804 هـ.

4 - والشيخ شمس الدين الفنارىّ في الاطلاع على كلّ العلوم العقليَّة والنقليَّة والعربية. وهو محمد بن حمزة من علماء الروم في أَيام السلطان بايزيد بن مراد. وكانت وفاته سنة 834، وبهذا لا يكون المجد آخر من مات، كما يذكر صاحب الشقائق. وقد أَبدى هذا النقد اللكنوى في كتابه " الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفية ".

5 - والشيخ ابن عرفة في فقه المالكية بالمغرب. وهو محمد بن محمد ابن عرفة. توفى سنة 803 هـ.

ويستدرك المقرّى في أَزهار الرياض على صاحب الشقائق، فيقول: " قيل: ولو زاد ولىّ الدين بن خلدون في التاريخ وطبائع العالَم لحسن ". وابن خلدون أَشهر من أَن يعرَّف به. وكانت وفاته سنة 808 هـ [1].

مذهبه الفقهى وتصوفه :

كان المجد شافعىّ المذهب، كأَكثر أَهل شيراز. ويذكر الفاسىّ أَن عنايته بالفقه غير قويَّة. وهو مع ذلك ولى قضاءَ الأقضية باليمن، وكان سلفه جمال الدين الرَّيمى من جِلَّة الفقهاء، وله شرح كبير على التنبيه لأَبى إسحاق الشيرازى. وفي الحقّ أَنا لا نكاد نرى له تأليف في الفقه خاصَّة. ونراه في سفر السعادة يعرض لأحكام العبادات، ويذكر أَنه يعتمِد فيها على الأحاديث الصحيحة، فيذهب مذهب أَهل الحديث لا مذهب الفقهاءِ.

وكانت له نزعة قويّة إلى التصوف، واسع الاطلاع على كتب

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 8.

الصوفيَّة ومقاماتهم وأَحوالهم. يبدو ذلك حين يعرض في البصائر لنحو التوكل والإخلاص والتوبة، فتراه ينحو نحو الصوفية، وينقل عنهم الشيء الكثير ونراه في صدر سفر السعادة يتحدَّث عن الخَلْوة عند الصوفيَّة لمناسبة ذكر خلوة الرسول عليه الصلاة والسلام في غار حراء.

وحين كان في اليمن انتشرت مقالة محيى الدين بن عربى في وحدة الوجود وما إليها في زبيد. وكان يدعو إليها الشيخ إسماعيل الجبرتى الذي استوطن زبيد، وأَحرز مكانة عند السلطان؛ إّذ ناصره عند حصار الإمام الزيدىّ للمدينة، فمال المجد إلى هذه العقيدة. ويذكر ابن حجر في إنباءِ الغُمر أَنه كان يُدخل في شرح صحيح البخارى من كلام ابن عربى في الفتوحات المكية ما كان سببا لشَين الكتاب، ويقول: " ولم أَكن أَتَّهم الشيخ المذكور بمقالته (أَى بمقالة ابن عربى)، إلا أَنه كان يحبُّ المداراة. ولما اجتمعت بالشيخ مجد الدين أَظهر لى إنكار مقالة ابن العربى وغضَّ منها " وكان اجتماع ابن حجر به في زبيد عام 800هـ.

ولكنا نرى أَنه يمجّد ابن عربى، ويثنى على كتبه بما ينبئ عن صدق اعتقاده فيه، وأَنه أَدنى إلى أَن يدارى ابن حجر الذي كان شديد الإنكار على ابن عربى.

فقد أَلَّف كتاباً بسبب سؤال رفع إليه في شأْن ابن عربى، وفي هذا الكتاب: " الذي أَعتقده في حال المسؤول عنه، وأَدين الله تعالى به أَنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلما، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً، ومحيى رسوم المعارف فعلاً واسماً.

إذا تغلغل فكر المرءِ في طَرَف ∴ من بحره عرِقت فيه خواطره

ثم يقول بعد الثناءِ الكثير:

ومع عليَّ إذا ما قلت معتقدى ... دع الجهول يظنّ العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومَن ... أَقامه حجَّة للدين برهانا
إن الذي قلت بعض من مناقبه ... ما زدت إلا لعلى زدت نقصانا (1)

استقراره في اليمن:

بعد أَن طوَّف المجد في البلاد انتهى به المطاف في اليمن. فقد استدعاه صاحبها الأَشرف إسماعيل بن العباس من آل رَسُول إلى حضرته زَبيد في سنة 796هـ، وكان قادماً من الهند. وأَمر عامله على عَدَن أَن يجهّزه بأَربعة آلاف درهم، ووصله حين وصل إليه بأَربعة آلاف درهم أُخرى. وأَكرمه السلطان ونصبه للتدريس وصار يحضر دَرسه.

وفي سنة 797 هـ ولاَّه منصب قضاء الأَقضية، وكان شاغراً منذ وفاة جمال الدين محمد بن عبد الله الرَيْمىّ في سنة 792 هـ، وكتب له منشور بذلك في أَقطارِ المملكة. وظل يزاول التدريس، فقد سمع السلطان عليه في رمضان من سنة 798 هـ صحيح البخاريّ، وكان ذا سَند عالٍ من طرق شَتَّى.

ولقد لقى حظوة كبيرة عند السلطان الأَشرف، وتزوّج الأَشرف ابنته لفرط جمالها، فازداد المجد قربا منه وزُلفى لديه. ويُروى أَنه أَلَّف له كتابا وأَرسله إليه محمولا على أَطباق فردَّها إليه السلطا ن مملوءَة دراهم. وفي اليوم الخامش عشر من شهر شعبان من سنة 800هـ فرغ من كتابه " الإصعاد " وكان ثلاثة مجلدات، فحمله ثلاثة رجال على رءوسهم إلى السلطان، وسار أَمام حملة الكتاب الفقهاء والقضاة وسائر الطلبة فلمّا دخل المجد على السلطان وقدَّم إليه الكتاب

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 9.

أَجازه بثلاثة آلاف دينار.

ولم تكن هذه الطريقة في رفع الكتاب إلى السلطان غريبة في بلاد اليمن، فيحكى صاحب العقود اللؤلؤية أَن سلف المجد في قضاء الأَقضية الجمال الريميّ في سنة 788 هـ رفع كتاب " التفقيه في شرح التنبيه " في فروع الشافعية، إلى السلطان - وكان في أَربعة وعشرين جزءا - فحمله المتفقهّة على رؤوسهم إلى باب السلطان. وقد حباه السلطان بثمانية وأَربعين أَلف درهم.

وقد بلغ من اعتزاز الأَشرف به وحرصه أَلاَّ يفارقه أَبدا أَن طلب إليه المجد أَن يأذن له بالسفر إلى الحجّ، فرأَى أَن في هذا حرمانا للبلاد من علمه وفضله، وعَزَم عليه أَن يبقى إلى جانبه.

فلقد كتب إلى السلطان في سنة 799 هـ كتابا فيه: " وممّا يُنهيه إلى العلوم الشريفة أَنه غير خاف عليكم ضعف أَقلّ العبيد، ورِقَّة جسمه، ودقَّة بنيته، وعلوّ سنّه. وقد آل أَمره إلى أَن صار كالمسافر الذي تحزّم وانتعل، إذ وهَنَ العظم، بل والرأْس اشتعل، وتضعضع السِّن، وتقعقع الشَنّ. فما هو إلاّ عظام في جواب، وبنيان مشرف على خراب. وقد ناهز العَشر التي تسميها العرب دقَّاقة الرقاب. وقد مرّ على المسامع الشريفة، غير مرّة في صحيح البخارىّ قول سيدنا رسول الله ﷺ: **إذا بلغ المرء ستيّن سنة فقد أَعذر الله إليه** فكيف من نيّف على السبعين، وأَشرف على الثمانين. ولا يَجمل بالمؤمن أَن تمضى عليه أَربع سنين ولا يتجدَّد له شوق وعزم إلى بيت ربّ العالمين، وزيارة سيد المرسلين، وقد ثبت في الحديث النبوىّ ذلك. وأَقلّ العبيد له ستّ سنين عن تلك المسالك. وقد غلب عليه الشوق، حتى جلَّ عمْره عن الطَوْق. ومن أَقصى أُمنيَّته أَن يجدّد العهد بتلك المعاهد، ويفوز مرة أُخرى بتقبيل تلك المشاهد. وسؤالُه من المراحم الحسَنيَّة الصدقة عليه بتجهيزه في هذه الأَيام، مجرّدا عن الأَهالى

والأَقوام، قبل اشتداد الحَرّ وغلبة الأُوام؛ فإن الفصل أَطيب، والريح أَزْيب. ومن الممكن أَن يفوز الإنسان بإقامة شهر في كل حَرَم، ويحظى بالتملّى من مهابط الرحمة والكرم. وأَيضا كان من عادة الخلفاء سَلَفا وخَلَفا أَنهم كانوا يُبردون البريد عَمْداً قصدا لتبليغ سلامهم إلى حضرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فاجعلنى - جعلنى الله فداك - ذلك البريد، فلا أَتمنى شيئا سواه ولا أُريد.

شوفى إلى الكعبة الغرّاء قد زادا ... فاستحمل القُلُص الوخّادة الزادا
واستأْذن الملك المنعام دام عُلاً ... واستودع الله أَصحابا وأَولادا

فلما وصل الكتاب إلى السلطان كتب إليه: إن هذا ش يء لا ينطق به لسانى، ولا يجرى أَن نتقدم، وأَنت تعلم أَن الله قد أَحيا بك ما كان ميّتا من العلم. فبالله عليك إلاَّ ما وهبت لنا بقيَّة هذا العمر. والله يا مجد الدين يمينا بارَّة، إنى أَرى فراق الدنيا ولا فراقك، أَنت اليمن وأَهله.

وقد بقى في اليمن مغمورا ببرّ الأَشرف إسماعيل. ويظهر أَن المجد أَلحَّ عليه أَن يأْذن له في الحج، فأَذن له. ففى سنة 802 هـ حجّ، وأَقام بمكَّة بعد الحجّ، وبَنى له دارا على الصَّفا. ونراه يقول في مادة (ص ف و) في القاموس: " والصَفا من مشاعر مكَّة بلحف أَبى قُبَيْس. وابتنيت على مَتْنه دارا فيحاءَ ". وفي هذه الدار أَتم القاموس، فهو يقول في خاتمة هذا الكتاب: " وقد يسَّر الله - تعالى - إتمامه بمنزلى على الصفا بمكَّة المشرَّفة، تجاه الكعبة المعظمة، زادها الله تعظيما وشرفا، وهيّأ لقُطَّان باحتها من بحابح الفراديس غرفا ".

ويذكر الفاسىّ في العقد الثمين أَنه جعل هذه الدار مدرسة باسم الملك الأَشرف، ورتَّب فيها مدرسين للحديث، وفقه مالك وفقه الشافعى.

وفعل مثل ذلك في المدينة، ثم ذهب إلى اليمن قاصدا الأَشرف، فمات الأَشرف قبل وصوله. والأَشرف هو إسماعيل بن العباس، ولى

الملك سنة 778، وكان كريما ممدَّحا مقبلا على العلم والعلماء، يكرم الغرباءَ ويبالغ في الإحسان إليهم، اشتغل بفنون من الفقه والنحو والأَدب والتاريخ والأَنساب والحساب وغيرها، كما في ترجمته في الضوءِ اللامع، ومات بزبيد سنة 803هـ.

وصحب المجد بعد الأَشرف ابنه السلطان الناصر أَحمد. ويظهر أَن المجد لم يلق في عهده ما لقيه في عهد أَبيه الأَشرف. ومن ثم أَبطل المدرستين في مكة والمدينة اللتين جعلهما باسم الأَشرف. ويذكر السخاوى في ترجمته أَنه في أَيامه خرب غالب بلاد اليمن لكثرة ظلمه وعَسْفه وعدم سياسته. وكانت وفاته سنة 827هـ [1].

وفاة المجد:

كانت وفاته في ليلة الثلاثاءِ العشرين من شوال سنة 817هـ (أَول يناير سنة 1415م). ويقول الفاسى: " وما ذكرناه من تاريخ ليلة موته موافق لرؤية أَهل زَبِيد لهلال شوّال كان عند أَهل زبيد يوم الخميس، وعند غيرهم يوم الجمعة، وهو الموافق لما في التوفيقات الإلهامية.

و قد مات ممتَّعا بسمعه وبصره، فقد قرأَ خطًّا دقيقاً قبل موته بيسير، ودفن بمقبرة الشيخ إسماعيل الجبرتى في زبيد [2].

مؤلفات المجد وآثاره :

إن ثبَت مؤلفاته طويل، وكلها في التفسير والحديث والتار يخ، وما يتصل بهذه الأُمور. وقد فقد معظمها. وهاك هذا الثبت، وهو ليس حاصراً، وكان يختار لكتبه أَسماء حسنة، يلتزم فيها السجع.

1 - بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز.

2 - تنوير المقباس، في تفسير ابن عباس، طبع في مصر والهند.

3 - تيسير فاتحة الإهاب، في تفسير فاتحة الكتاب.

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 13.
(2) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 15.

4 - الدرّ النظيم، المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم.

5 - حاصل كُورة الخلاص، في فضائل سورة الإخلاص.

6 - قُطبة الخَشَّاف، شرح خطبة الكشَّاف (الخَشَّاف: الماضى فـي السير).

7 - شوارق الأَسرار العليَّة، في شرح مشارق الأَنوار النبويَّة. (مشارق الأَنوار في الحديث للصاغانى).

8 - مَنْح البارى بالسيْح الفسيح الجارى، في شرح صحيح البخارى. كمل منه عشرون مجلدة، وكان يقدَّر تمامه في أَربعين مجلدة.

9 - عدَّة الحُكَّام، في شرح عمدة الأَحكام. وعمدة الأَحكام كتاب في أَحاديث الأَحكام الشرعية للجماعيلى عبد الغنى بن عبد الواحد المتوفى سنة 900هـ، كما في كشف الظنون.

10 - امتصاص الشِّهاد، في افتراض الجهاد (وفي الضوءِ اللامع وكشف الظنون: امتضاض السهاد) وما هنا عن العقد الثمين.

11 - الإسعاد، بالإصعاد، إلى مرتبة الاجتهاد.

12 - النفحة العنبرية، في مولد خير البريَّة.

13 - الصِّلات والبُشَر، في الصلاة على خير البَشَر.

14 - الوصل والمُنَى، في فضائل مِنى.

15 - المغانم المُطَابة، في فضائل طابة (وطابة هى المدينة المنورة).

16 - مهيّج الغرام، إلى البلد الحرام.

17 - إثارة الحَجُون، إلى زيارة الحَجون (الحجون الأَول: الكسلان، والأَخير: جبل بأَعلى مكة).

18 - أَحاسن اللطائف، في محاسن الطائف.

19 - فَصل الدُرَّة من الخَرزة، في فضل السَلامة على الخِبَزَة

(والسلامة والخبزة: قريتان بالطائف).

20 - روضة الناظر، في ترجمة الشيخ عبد القادر (والظاهر أَن المراد الشيخ عبد القادر الجيلانى).

21 - المِرقاة الوفية، في طبقات الحنفية.

22 - المرقاة الأَرفعيّة، في طبقات الشافعية.

23 - البُلغة، في تراجم أَئمة النحاة واللغة.

24 - الفضل الوفى، في العدل الأَشرفى (الأَشرف إسماعيل الرسولى).

25 - نزهة الأَذهان، في تاريخ أَصبهان.

26 - تعيين الغُرفات، للمعين على عين عَرَفات.

27 - مُنية السول، في دعوات الرسول.

28 - التجاريح، في فوائد متعلقة بأَحاديث المصابيح - والمصابيح للبغوى.

29 - تسهيل طريق الوصول، إلى الأَحاديث الزائدة على جامع الأُصول. وجامع الأُصول لابن الأَثير.

30 - الأَحاديث الضعيفة.

31 - الدرّ الغالى، في الأَحاديث العوالى.

32 - سفر السعادة - وهو مطبوع.

33 - المتفق وضعا، والمختلف صُقعًا.

34 - اللامع المُعْلَم العُجاب، الجامع بين المحكم والعُباب - كمل منه خمس مجلدات. وكان يقدر تمامه في ستين سفرا.

35 - القاموس المحيط.

36 - مقصود ذوى الأَلباب، في علم الإعراب.

37 - تحبير الموسين، فيما يقال بالسين والشين. طبع في الجزائر

سنة 1327هـ.

38 - المثلث الكبير.

39 - المثلث الصغير.

40 - تحفة القماعيل، فيمن تسمَّى من الملائكة والناس إسماعيل (القماعيل جمع قِمْعال، وهو سيد القوم).

41 - الدُرَر الْمُبَثَّثة، في الغُرر المثلثة.

42 - أَسماء السراح في أَسماء النكاح.

43 - أَسماء الغادة، في أَسماء العادة.

44 - الجليس الأَنيس، في أَسماء الخندريس.

45 - أَنواء الغيث، في أَسماء الليث.

46 - ترقيق الأَسل، في أَسماء العسل.

47 - زاد المعاد، في وزن بانت سعاد.

48 - النُخَب الطرائف، في النكت الشرائف [1].

بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز:

هذا كما يظهر من اسمه يبحث في أَشياء تتعلق بالقرآن الكريم الذي لا تنفد عجائبه، ولا تنتهى لطائفه.

ويبحث في بعض علوم القرآن، يحتوي على مقدمة فيها فضل القرآن وش يء من المباحث العامة المتعلقة به كالنسخ ووجوه المخاطبات، ثم يأخذ في ذكر مباحث تتعلق بالقرآن: سورة سورة على ترتيبها المعروف في المصحف، فيذكر في كل سورة مباحث تسعة موضع النزول - عدد الآيات والحروف والكلمات - اختلاف القراء في عدد الآيات - مجموع فواصل السورة - اسم السورة أو أسماؤها - مقصود السورة وما هي متضمنة له - الناسخ والمنسوخ - المتشابه

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص 17.

منها - فضل السورة.

والقارئ لخطبة الكتاب يرى أَن المؤلِّف يقدّم كتابا جامعا لمقاصد العلوم والمعارف في عصره، حتى العلوم المدنية التي لم يكن للمؤلف بد فيها ولا بصربها، كالهندسة والموسيقى والمرايا المحرِقة.

ويذكر في الخطبة أَن الكتاب مرتَّب على مقدمة وستين مقصدا. والمقاصد الستون في علوم العصر، كل مقصد في علم منها.

ونراه في الخطبة يسرد عنوانات المقاصد؛ ليكون ذلك فهرسا إجمالياً للكتاب. فالمقصد الأَول في لطائف تفسير القرآن. والثانى في علم الحديث النبوى، ويستمر هكذا في السَّرْد، حتى يصل إلى المقصد الخامس والخمسين في علم قوانين الكتابة. ثم نرى: " المقصد السادس والخمسون في علم... " ولا نرى ما يضاف إليه (علم) ولا بقيّة المقاصد الستين، فهل هذا النقص من النساخ لما بين أَيدينا من النُسَخ؟

وهو يذكر أَن الذي رسم بتأْليف الكتاب على هذا النحو الجامع لسلطان الأشرف إسماعيل بن العباس الذي دعاه إلى حضرته بزبيد، وولاَّه قضاء الأَقضية، كما سبق الكلام عليه. ونراه يقول: " قصد بذلك - نصره الله - جمع أَشتات العلوم وضمَّ أَنواعها - على تباين أَصنافها - في كتاب مفرد؛ تسهيلا لمن أَراد الاستمتاع برائع أَزهارها، ويانع أَثمارها الغضّ المصون، فيستغنى الحائز له، الفائز به، عن حمل الأَسفار، في الأَسفار... ".

وقد كان السلطان الأَشرف مضطلعا بالعلوم، كما وصفه من عاصره. وكان يبعث العلماءَ على التصنيف.

وقد يضع منهج الكِتاب وخِطَّته، ويكل إتمامه إلى بعض العلماءِ. ويذكر السخاوىّ في الضوءِ اللامع في ترجمته " أَنه كان يضع وضْعا، ويحدّ حدّا، ثم يأْمر من يتمُّه على ذلك الوضع، ويعرض عليه. فما ارتضاه أَثبته، وما شذَّ عن مقصوده حذفه، وما وجده ناقصا أَتمَّه

."

وبعد هذا لا يعجب من وقف على حَيَاة المجد واقتصاره على علوم الرواية، من تعرضُّه للعلوم الفلسفيَّة والمدنيَّة، ووضع منهج الكتاب على أَن يذكر مقاصدها. فإن الواضع للخطَّة الأَشرف إسماعيل، وقد كان واسع المعرفة. ومما ذكر من العلوم التي كان يتقهنا الحساب، وقد يكون عارفا بما هو من باب الحساب، كالهندسة والمرايا المحرقة، وما إلى ذلك. وكان الملْك والعُمْران يقتضى هذه العلوم، بالإضافة إلى العلوم الدينية والعربية.

ولكن كيف يكل الأَشرف إعداد هذا المنهج الواسع إلى الفيروز آبادى قاضى الأَقضية، وهو لا يحسن تلك العلوم التي كانوا يسمُّونها علوم الأَوائل؟

الظاهر أَنه كلَّفه هذا على أَن يستعين فيما لا يعرفه من يعرفه من أَهل الاختصاص؛ وله من خبرته ومنصبه ما يعينه على ذلك.

وبعد هذا لا نرى من آثار هذا المنهج العام إلا المقدّمة التي تتعلق بفضل العلم و تمييز العلوم، ثم المقصد الأَول، وهو لطائف التفسير الذي سمى فيما بعد: بصائر ذوى التمييز. فهذا الوضع الجامع لم يقدِّر للمجد أَن يتمَّه وحده، أو مستعينا غيره.

والظاهر أَن الأَشرف مات بعد تمام المقصد الأَول، ففترت همَّة المجد في عهد ولده الناصر؛ إذ كان لا يلقى من البرِّ والكرم، ما كان يلقاه في عهد صهره السلطان الأَشرف، ولم يجد من المال ما يجزى به من يشتغل في هذا العمل الوسَاع الجليل، وهذا مع أَنه قد علته كَبْرة، وأَدركه فتور الشيخوخة.

(عود إلى بصائر ذوى التمييز)

لا نرى هذا العنوان في الكتاب. إنما العنوان في الكتاب في

الإجمال والتفصيل: " المقصد الأَول في لطائف تفسير القرآن العظيم ". وقد أَصبح هذا العنوان لا مكان له بعد عدول المجد عن بقية المقاصد، فكان من المستحسن أَن يكون له اسم يشعر باستقلاله، وأَنه ليس جزءًا من كتاب جامع. وكان المؤلف جعل عنوان كل بحث في هذا المقصد: " بصيرة " فأَصبح الكتاب جملة بصائر، ومن هذا استمدَّ الاسم الجديد: " بصائر ذوى التمييز، في لطائف الكتاب العزيز ". وتراه غيَر " العظيم " بالعزيز ليسجِّع مع العبلوة التي اجتلبها.

وقد كان يحسن به أَن يعدل عن خطبة الكتاب الجامع، ويستأَنف خطبة خاصة بهذا الكتاب. وكأَنه كان يرجو أَن يقدَّر له يوما إِنجاز ما اعتزمه من المقاصد الستين، فأَبقى الخطبة على حالها الأَول.

(مقدمة المحقق) ضمن العنوان (منهج بصائر ذوى التمييز)

يحتوى هذا الكتاب مقدمة فيها فضل القرآن، وشىء من المباحث العامة المتعلقة به، كالنسخ، ووجوه مخاطباته، ثم يأْخ ذ في ذكر مباحث تتعلق بالقرآن سورة سورة، على ترتيبها المعروف في المصحف... فيذكر في كل سورة مباحث تسعة:

1 - موضع النزول.
2 - عدد الآيات والحروف والكلمات.
3 - اختلاف القراءِ في عدد الآيات.
4 - مجموع فواصل السورة.
5 - اسم السورة أَو أَسماؤها.
6 - مقصود السورة، وما هى متضمِّنة له.
7 - الناسخ والمنسوخ من السورة.
8 - المتشابه منها.
9 - فضل السورة.

وبعد هذا يعقد بحثاً إجمالياً في عدد آيات القرآن، وعدد كلماته وحروفه، وما يجرى هذا المجرى؛ كعدد كل حرف من الحروف الهجائية فيه، فيذكر مثلاً أَن عدد اللامات فيه كذا.

ثم يعرض لتفسير مفردات القرآن على نحو عمل الراغب في مفرداته. ويصنِّفها باعتبار الحرف الأَول من الكلمة، فالمبدوءُ بحرف الأَلف في حرف الأَلف، وهكذا. ويصدّر مباحث كل حرف بالكلام على وصف الحرف ومعناه لغة، والنسبة إليه ونحو ذلك. ونراه قد يراعى الحرف الزائد في الكلمة، فنرى الإنزال في حرف الأَلف. ويأْتى هذا القسم في تسعة وعشرين بابا على عدد حروف الهجاءِ.

ثم يأْتى الباب الثلاثون، فيذكر فيه الأَنبياءَ المذكورين في القرآن، وأَعداءَهم وقصصهم، وما يدخل في هذا الباب، وبهذا ينتهى الكتاب[1].

* * *

(1) انظر مقدمة تحقيق بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، من تحقيق محمد على النجار، ص 22.